

وقد أجابت عنها الرسل بقولهم: **﴿إن نحن إلا بشر مثلكم ولكن الله يمن على من يشاء من عباده﴾**. وهذا **﴿وإن نظنك لمن الكاذبين﴾** وهذا جراءة منهم وظلم وقول زور، قد انطوا على خلافه، فإنه ما من رسول من الرسل، واجه قومه ودعاهم، وجادلهم وجادلوه، إلا وقد أظهر الله على يديه من الآيات، ما به يتيقنون صدقه وأمانته، خصوصاً شعيباً عليه السلام، الذي يسمى خطيب الأنبياء، لحسن مراجعته قومه، ومجادلتهم بالتي هي أحسن، فإن قومه قد تيقنوا صدقه، وأن ما جاء به حق، ولكن إخبارهم عن ظن كذبه كذب منهم.

**﴿فأسقط علينا كسفاً من السماء﴾** أي: قطع عذاب تستأصلنا. **﴿إن كنت**

**من الصادقين﴾** كقول إخوانهم **﴿وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم﴾** أو أنهم طلبوا بعض آيات الاقتراح، التي لا يلزم تميم مطلوب من سألها.

**﴿قال﴾** شعيب عليه السلام: **﴿ربي أعلم بما تعملون﴾** أي: نزول العذاب، ووقوع آيات الاقتراح، لست أنا الذي آتي بها وأنزلها بكم، وليس عليّ إلا تبليغكم ونصحكم وقد فعلت، وإنما الذي يأتي بها ربي، العالم بأعمالكم وأحوالكم، الذي يجازيكم ويحاسبكم.

**﴿فكذبوه﴾** أي: صار التكذيب لهم وصفاً، والكفر لهم ديدناً، بحيث لا تفيدهم الآيات، وليس بهم حيلة إلا نزول العذاب.

**﴿فأخذهم عذاب يوم الظلة﴾** أظلتهم سحابة فاجتمعوا تحتها مستلذين، لظلها غير الظليل، فأحرقتهم بالعذاب، فظلوا تحتها خامدين، ولديارهم مفارقين، ولدار الشقاء والعذاب نازلين.

**﴿إنه كان عذاب يوم عظيم﴾** لا كرة لهم إلى الدنيا، فيستأنفوا

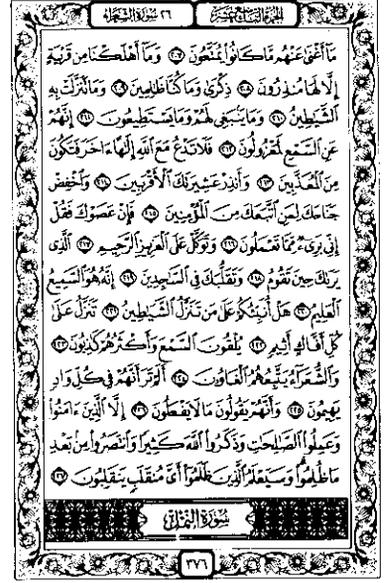
العمل، ولا يُفتر عنهم العذاب ساعة، ولا هم ينظرون.

**﴿إن في ذلك لآية﴾** دالة على صدق شعيب، وصحة ما دعا إليه، ويطان رد قومه عليه، **﴿وما كان أكثرهم مؤمنين﴾** مع رؤيتهم الآيات، لأنهم لا زكاء فيهم، ولا خير لديهم **﴿وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين﴾**.

**﴿وإن ربك لهو العزيز﴾** الذي امتنع بقوته عن إدراك أحد، وقهر كل مخلوق. **﴿الرحيم﴾** الذي الرحمة وصفه، ومن آثارها، جميع الخيرات في الدنيا والآخرة، من حين أوجد الله العالم إلى ما نهاية له. ومن عزته، أن أهلك أعداءه حين كذبوا رسله، ومن رحته، أن نجى أوليائه ومن اتبعهم من المؤمنين.

**﴿١٩٢ - ٢٠٣﴾** **﴿وإنه لتنزيل رب العالمين﴾** نزل به الروح الأمين \* على قلبك لتكون من المنذرين \* بلسان عربي مبين \* وإنه لفي زبر الأولين \* أولم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بني إسرائيل \* ولو نزلناه على بعض الأعجمين \* فقرأه عليهم ما كانوا به مؤمنين \* كذلك سلكتنا في قلوب المجرمين \* لا يؤمنون به حتى يروا العذاب الأليم \* فيأتهم بغتة وهم لا يشعرون \* فيقولوا هل نحن منظرون \* لما ذكر قصص الأنبياء مع أممهم، وكيف دعوهم، و [ما] <sup>(١)</sup> ردوا عليهم به، وكيف أهلك الله أعداءهم، وصارت لهم العاقبة.

ذكر هذا الرسول الكريم، والنبي المصطفى العظيم، وما جاء به من الكتاب، الذي فيه هداية لأولي الألباب، فقال: **﴿وإنه لتنزيل رب العالمين﴾** فالذي أنزله، فاطر الأرض والسموات، الربّ جميع العالم، العلوي والسفلي، وكما أنه رباهم بهدائهم لمصالح دنياهم وأبدانهم، فإنه يريهم أيضاً، بهدائهم لمصالح دينهم وأخراهم، ومن أعظم ما رباهم به، إنزال هذا الكتاب الكريم، الذي



ويغضبه، من الكفر والمعاصي، **﴿إن** لكم رسول أمين **﴾** يترتب على ذلك، أن تتقوا الله وتطيعون، وكانوا - مع شركهم - يخشون المكابيل والموازن، فلذلك قال لهم: **﴿أوفوا الكيل﴾** أي: أتموه وأكملوه **﴿ولا تكونوا من المخسرين﴾** الذين ينقصون الناس أموالهم ويسلبونها ببخس المكيال والميزان، **﴿وزنوا بالقسطاس المستقيم﴾** أي: بالميزان العادل، الذي لا يميل، **﴿واتقوا الذي خلقكم والجبلة الأولين﴾** أي: الخليفة الأولين، فكما انفرد بخلقكم، وخلق من قبلكم من غير مشارك له في ذلك، فأفردوه بالعبادة والتوحيد، وكما أنعم عليكم بالإيجاد والإمداد بالنعم، فقابلوه بشكره.

قالوا له، مكذبين له، راذين لقوله: **﴿إنما أنت من المسحurin﴾** فأنت تهذي وتتكلم كلام المسحور، الذي غايته أن لا يؤاخذ به.

**﴿وما أنت إلا بشر مثلنا﴾** فليس فيك فضيلة اختصاصت بها علينا، حتى تدعونا إلى اتباعك، وهذا مثل قول من قبلهم ومن بعدهم، ممن عارضوا الرسل بهذه الشبهة، التي لم يزالوا يدلون بها ويصولون، ويتفقون عليها، لافتقارهم على الكفر، وتشابه قلوبهم.

طول المدة. القصد أن الحذر، من وقوع العذاب، واستحقاقهم له. وأما تعجيله أو تأخيره، فلا أهمية تحته، ولا جدوى عنده.

﴿٢٠٨ - ٢١٢﴾ ﴿وما أهلكنا من قرية إلا لها منذرون﴾ \* ذكرى وما كنا ظالمين \* ﴿وما تنزلت به الشياطين﴾ \* ﴿وما ينبغي لهم وما يستطيعون﴾ \* إنهم عن السمع لمعزولون﴾ \* يخبر تعالى عن كمال عدله في إهلاك المكذبين، وأنه ما أوقع بقية هلاكاً وعذاباً، إلا بعد أن يعذر منهم، ويبعث فيهم النذر بالآيات البينات، ويدعوهم إلى الهدى، وينهونهم عن الردى، ويذكروهم بآيات الله، وينهونهم على أيامه في نعمه ونقمه.

﴿ذكرى﴾ لهم وإقامة حجة عليهم. ﴿وما كنا ظالمين﴾ فهلك القرى قبل أن نذره، ونأخذهم وهم غافلون عن النذر، كما قال تعالى: ﴿وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا﴾ \* ﴿رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل﴾.

ولما بين تعالى كمال القرآن وجلالته، نزهه عن كل صفة نقص، وحماه - وقت نزوله، وبعد نزوله - من شياطين الجن والإنس، فقال: ﴿وما تنزلت به الشياطين﴾ \* ﴿وما ينبغي لهم﴾ \* أي: لا يلقى بحالهم ولا يناسبهم ﴿وما يستطيعون﴾ \* ذلك. ﴿إنهم عن السمع لمعزولون﴾ \* قد أبعادوا عنه، وأعدت لهم الرجوم لحفظه، ونزل به جبريل أقوى الملائكة، الذي لا يقدر شيطان أن يقربه، أو يحوم حول ساحته، وهذا كقوله: ﴿إننا نحن نزلنا الذكر وإننا له لحافظون﴾.

﴿٢١٣ - ٢١٦﴾ ﴿فلا تدع مع الله إلهاً آخر فتكون من المعذبين﴾ \* وأنذر عشيرتك الأقربين \* واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين \* ﴿فإن عصوك فقل إني بريء مما تعملون﴾ \* ينهى تعالى رسوله أصلاً، وأمه أسوة له في ذلك، عن دعاء غير الله، من جميع المخلوقين، وأن ذلك موجب للعذاب الدائم، والعقاب السرمدى، لكونه

أفصح الخلق، وأقدرهم على التعبير عن المقاصد، بالعبارات الواضحة وأنصحهم، وليبادروا إلى التصديق به، وتلقيه بالتسليم والقبول، ولكن تكذيبهم له عن غير شبهة، إن هو إلا محض الكفر والعناد، وأمر قد توارثته الأمم المكذبة، فلماذا قال: ﴿كذلك سلكناه في قلوب المجرمين﴾ \* أي: أدخلنا التكذيب، وأنظمناه في قلوب أهل الإجرام، كما يدخل السلك في الإبرة، فتشربته، وصار وصفاً لها، وذلك بسبب ظلمهم وجرمهم، فلذلك ﴿لا يؤمنون به حتى يروا العذاب الأليم﴾ \* على تكذيبهم، ﴿فيأتيهم بغتة وهم لا يشعرون﴾ \* أي: يأتيهم على حين غفلة، وعدم إحساس منهم، ولا استشعار بنزوله، ليكون أبلغ في عقوبتهم والتكال بهم.

﴿فيقولوا﴾ \* إذاك: ﴿هل نحن منظرون﴾ \* أي: يطالبون أن ينظروا ويمهلوا، والحال إنه قد فات الوقت، وحل بهم العذاب الذي لا يرفع عنهم، ولا يفتر ساعة.

﴿٢٠٤ - ٢٠٧﴾ ﴿أنبئنا يستعجلون﴾ \* أفرايت إن متعناهم سنين \* ثم جاءهم ما كانوا يوعدون \* ما أغنى عنهم ما كانوا يتمتعون﴾ \* يقول تعالى: ﴿أنبئنا﴾ \* الذي هو العذاب الأليم العظيم، الذي لا يستهان به ولا يحتمل، ﴿يستعجلون﴾ \* فما الذي غرهم؟ هل فيهم قوة وطاقة للصبر عليه؟ أم عندهم قوة يقدرون على دفعه أو رفعه إذا نزل؟ أم يُعجزونا ويظنون أننا لا نقدر على ذلك؟

﴿أفرايت إن متعناهم سنين﴾ \* أي: أفرايت إذا لم نستعجل عليهم بإنزال العذاب، وأمهلناهم عدة سنين يتمتعون في الدنيا ﴿ثم جاءهم ما كانوا يوعدون﴾ \* من العذاب.

ما أغنى عنهم ما كانوا يتمتعون﴾ \* من اللذات والشهوات، أي: أي شيء تغني عنهم وتفيدهم، وقد مضت، وبطلت، واضمحلت، وأعقبت تبعاتها، وضوعف لهم العذاب عند

اشتمل على الخير الكثير، والبر الغزير، وفيه من الهداية لمصالح الدارين، والأخلاق الفاضلة، ما ليس في غيره، وفي قوله: ﴿وإنه لتنزيل رب العالمين﴾ \* من تعظيمه وشدة الاهتمام فيه، من كونه نزل من الله، لا من غيره، مقصوداً فيه نفعكم وهدايتكم، ﴿نزل به الروح الأمين﴾ \* وهو جبريل عليه السلام، الذي هو أفضل الملائكة وأقواهم، ﴿الأمين﴾ \* الذي قد أمن أن يزيد فيه أو ينقص.

﴿على قلبك﴾ \* يا محمد ﴿لتكون من المنذرين﴾ \* تهدي به إلى طريق الرشاد، وتنذر به عن طريق الغي.

﴿بلسان عربي﴾ \* وهو أفضل الألسنة، بلغة من بُعث إليهم، وبأشرف دعوتهم أصلاً، اللسان البين الواضح. وتأمل كيف اجتمعت هذه الفضائل الفاخرة في هذا الكتاب الكريم، فإنه أفضل الكتب، نزل به أفضل الملائكة، على أفضل الخلق، على أفضل بضعة فيه وهي قلبه، على أفضل أمة أخرجت للناس، بأفضل الألسنة وأفصحها وأوسعها، وهو اللسان العربي المبين.

﴿وإنه لفي زبر الأولين﴾ \* أي: قد بشرت به كتب الأولين وصدقته، وهو لما نزل طَبِقَ ما أخبرت به، صدقها، بل جاء بالحق وصدق المرسلين.

﴿أولم يكن لهم آية﴾ \* على صحته، وأنه من الله ﴿أن يعلمه علماء بني إسرائيل﴾ \* الذي قد انتهى إليهم العلم، وصاروا أعلم الناس، وهم أهل الصنف، فإن كل شيء يحصل به اشتباه، يرجع فيه إلى أهل الخبرة والدراية، فيكون قولهم حجة على غيرهم، كما عرف السحرة الذين مهروا في علم السحر، صدق معجزة موسى، وأنه ليس بسحر، فقول الجاهلين بعد هذا لا يؤبه به.

﴿ولو نزلناه على بعض الأعجمين﴾ \* الذين لا يفقهون لسانهم، ولا يقدرون على التعبير لهم كما ينبغي ﴿فقرأه عليهم ما كانوا به مؤمنين﴾ \* يقولون: ما نفقه ما يقول، ولا ندري ما يدعو إليه، فليحمدوا ربهم، أن جاءهم على لسان

والشهادة. فاستحضر العبد رؤية الله له في جميع أحواله، وسمعه لكل ما ينطق به، وعلمه بما ينطوي عليه قلبه، من الهم والعزم والنيات، مما يعينه على منزلة الإحسان.

﴿٢٢١ - ٢٢٧﴾ ﴿هل أنبئكم على من تنزل الشياطين \* تنزل على كل أفك أنيس \* يلقون السمع وأكثرهم كاذبون \* والشعراء يتبعهم الغاؤون \* ألا تر أنهم في كل واد يهيمون \* وأنهم يقولون ما لا يفعلون \* إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيراً وانتصروا من بعد ما ظلموا وسيعلم الذين ظلموا أي مقلب ينقلبون﴾ هذا جواب لمن قال من مكذبي الرسول: إن محمداً ينزل عليه شيطان. وقول من قال: إنه شاعر، فقال: ﴿هل أنبئكم﴾ أي: أخبركم الخبر الحقيقي الذي لا شك فيه ولا شبهة، على من تنزل الشياطين، أي: بصفة الأشخاص، الذين تنزل عليهم الشياطين. ﴿تنزل على كل أفك﴾ أي: كذاب، كثير القول للزور، والإنك بالباطل، ﴿أنيس﴾ في فعله، كثير المعاصي، هذا الذي تنزل عليه الشياطين، وتناسب حاله حالهم؟

﴿يلقون﴾ عليه ﴿السمع﴾ الذي يسترقونه من السماء، ﴿وأكثرهم كاذبون﴾ أي: أكثر ما يلقون إليه كذب<sup>(٢)</sup>، فيصدق واحدة، ويكذب معها مئة، فيختلط الحق بالباطل، ويضمحل الحق بسبب قلته، وعدم علمه. فهذه<sup>(٣)</sup> صفة الأشخاص الذين تنزل عليهم الشياطين، وهذه صفة وحيم له.

وأما محمد ﷺ، فحاله سبينة لهذه الأحوال أعظم مبيانية، لأنه الصادق الأمين، البار الراشد، الذي جمع بين بر القلب وصدق اللهجة ونزاهة الأفعال

ورفعها، وأعجب بعمله، فهل هذا إلا من جهله، وتزيين الشيطان وخذعه له، ولهذا قال الله لرسوله: ﴿فإن عصوك﴾ في أمر من الأمور، فلا تتبرأ منهم، ولا تترك معاملتهم، بخفض الجناح، ولين الجانب، بل تبرأ من عملهم، فعظهم عليه وانصحهم، وابذل قدرتك في ردهم عنه وتوبتهم منه، وهذا لدفع، احتراز وهم من يتوهم، أن قوله: ﴿واخفض جناحك﴾ للمؤمنين، يقتضي الرضاء بجميع ما يصدر منهم، ماداموا مؤمنين، فدفع هذا بهذا، والله أعلم.

﴿٢١٧ - ٢٢٠﴾ ﴿وتوكل على العزيز الرحيم \* الذي يراك حين تقوم \* وتقلبك في الساجدين \* إنه هو السميع العليم﴾ أعظم مساعد للعبد على القيام بما أمر به، الاعتماد على ربه، والاستعانة بمولاه على توفيقه للقيام بالأمور، فلذلك أمر الله تعالى بالتوكل عليه، فقال: ﴿وتوكل على العزيز الرحيم﴾ والتوكل هو اعتماد القلب على الله تعالى في جلب المنافع ودفع المضار، مع ثقته به، وحسن ظنه بحصول مطلوبه، فإنه عزيز رحيم، بعزته يقدر على إيصال الخير ودفع الشر عن عبده، ويرحمته به يفعل ذلك. ثم نبهه على الاستعانة باستحضر قرب الله، والنزول في منزل الإحسان فقال: ﴿الذي يراك حين تقوم \* وتقلبك في الساجدين﴾ أي: يراك في هذه العبادة العظيمة، التي هي الصلاة، وقت قيامك وتقلبك راکعاً وساجداً خصها بالذكر، لفضلها وشرفها، ولأن من استحضر فيها قرب ربه، خضع وذل، وأكملها، وتكملها يكمل سائر عمله، ويستعين بها على جميع أموره.

﴿إنه هو السميع﴾ لسائر الأصوات، على اختلافها وتشتتها وتنوعها، ﴿العليم﴾ الذي أحاط بالظواهر والبواطن، والغيب

شركاً، ﴿ومن يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار﴾ والنهي عن الشيء أمر بضده، فالنهي عن الشرك، أمر بإخلاص العبادة لله وحده لا شريك له، محبة، وخوفاً، ورجاء، وذللاً، وإنيابة إليه في جميع الأوقات. ولما أمره بما فيه كمال نفسه، أمره بتكميل غيره، فقال: ﴿وانذر عشيرتک الاقربين﴾ الذين هم أقرب الناس إليك، وأحقهم بإحسانك الديني والديني، وهذا لا ينافي أمره بإنذار جميع الناس، كما إذا أمر الإنسان بعموم الإحسان، ثم قيل له «أحسن إلى قرابتك»، فيكون هذا خصوصاً<sup>(١)</sup> دالاً على التأكيد وزيادة الحق، فامتثل ﷺ هذا الأمر الإلهي، فدعى سائر بطون قريش، فعمم وخصص، وذكرهم ووعظهم، ولم يُبقِ ﷺ من مقدوره شيئاً، من نصحهم وهدايتهم إلا فعله، فاهتدى من اهتدى، وأعرض من أعرض، ﴿واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين﴾ بلين جانبك، ولطف خطابك لهم، وتوددك وتحببك إليهم، وحسن خلقك والإحسان التام بهم، وقد فعل ﷺ ذلك، قال تعالى: ﴿فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر﴾ فهذه أخلاقه ﷺ، أكمل الأخلاق، التي يحصل بها من المصالح العظيمة ودفع المضار ما هو مشاهد. فهل يليق بمؤمن بالله ورسوله، ويدعي اتباعه والافتداء به، أن يكون كلاً على المسلمين، شرس الأخلاق، شديد الشكيمة عليهم، غليظ القلب، فظ القول، فظيعة؟ [و] إن رأى منهم معصية أو سوء أدب، هجرهم ومقتهم وأبغضهم، لا لين عنده، ولا أدب لديه، ولا توفيق، قد حصل من هذه المعاملة من المفاصد، وتعطيل المصالح ما حصل، ومع ذلك تجده محتقراً لمن اتصف بصفات الرسول الكريم، قد رماه بالنفاق والمداينة، وقد كمل نفسه

(١) وفي ب: الخصوص.

(٢) في النسخين: كذباً.

(٣) في النسخين: هذا.

من المحرم.

ولا نهى عن شيء إلا كان أول التاركين له.

والروحي الذي ينزل عليه من عند الله، ينزل محروساً محفوظاً، مشتملاً على الصدق العظيم، الذي لا شك فيه ولا ريب، فهل يستوي - يا أهل العقول - هذا وأولئك؟ وهل يشتبهان إلا على مجنون لا يميز ولا يفرق بين الأشياء؟

فلما نزهه عن نزول الشياطين عليه، برأه أيضاً من الشعر فقال: ﴿والشعراء﴾ أي: هل أنبئكم أيضاً عن حالة الشعراء، ووصفهم الثابت، فإنهم ﴿يتبعهم الغاوون﴾ عن طريق الهدى، المقبلون على طريق الغي والردى، فهم في أنفسهم غاوون، وتجد أتباعهم كل غاوضال فاسد.

﴿لم تر﴾ غوايتهم وشدة ضلالهم ﴿أنهم في كل واد﴾ من أودية الشعر، ﴿يهمون﴾ فتارة في مدح، وتارة في قبح، وتارة في صدق، وتارة في كذب، وتارة يتغزلون، وأخرى يسخرون، ومرة يمرحون، وأونة يجزون، فلا يستقر لهم قرار، ولا يثبتون على حال من الأحوال.

﴿وأنهم يقولون ما لا يفعلون﴾ أي: هذا وصف الشعراء، أنهم يخالف أفعالهم أفعالهم، فإذا سمعت الشاعر يتغزل بالغزل الرقيق، قلت: هذا أشد الناس غراماً، وقلبه فارغ من ذلك، وإذا سمعته يمدح أو يذم، قلت: هذا صدق، وهو كذب، وتارة يتمدح بأفعال لم يفعلها، وتروك لم يتركها، وكرم لم يحم حول ساحته، وشجاعة يعلو بها على الفرسان، وتراه أجبن من كل جبان، هذا وصفهم.

فانظر، هل يطابق حالة الرسول محمد ﷺ، الراشد البار، الذي يتبعه كل راشد ومهتد، الذي قد استقام على الهدى، وجانب الردى، ولم تتناقض أفعاله، ولم يخالف أفعاله؟ الذي لا يامر إلا بالخير، ولا ينهى إلا عن الشر، ولا أخبر بشيء إلا صدق، ولا أمر بشيء إلا كان أول الفاعلين له،

فهل تناسب حاله حالة الشعراء، أو يقاربه؟ أم هو مخالف لهم من جميع الوجوه؟ فصلوات الله وسلامه على هذا الرسول الأكمل، والهامم الأفضل، أيد الأبدنين، ودهر الداهرين، الذي ليس بشاعر، ولا ساحر، ولا مجنون، ولا يليق به إلا كل كمال.

ولما وصف الشعراء بما وصفهم به، استثنى منهم من آمن بالله ورسوله، وعمل صالحاً، وأكثر من ذكر الله، وانتصر من أعدائه المشركين من بعد ما ظلموه.

فصار شعرهم من أعمالهم الصالحة وآثار إيمانهم، لا شتماله على مدح أهل الإيمان، والانتصار من أهل الشرك والكفر، والذّب عن دين الله، وتبيين العلوم النافعة، والحث على الأخلاق الفاضلة، فقال:

﴿إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيراً وانتصروا من بعد ما ظلموا وسعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون﴾ ينقلبون إلى موقف وحساب، لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، ولا حقاً إلا استوفاه. والحمد لله رب العالمين.

### تفسير سورة النمل وهي مكية

﴿١-٦﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم طس تلك آيات القرآن وكتاب مبين \* هدى وبشرى للمؤمنين \* الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم يوقنون \* إن الذين لا يؤمنون بالآخرة زيننا لهم أعمالهم فهم يعمهون \* أولئك الذين لهم سوء العذاب وهم في الآخرة هم الأخسرون \* وإنك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم﴾ ينبه تعالى عباده على عظمة القرآن، ويشير إليه إشارة دالة على التعظيم، فقال: ﴿تلك آيات القرآن وكتاب مبين﴾ أي: هي أعلى الآيات، وأقوى البيئات، وأوضح

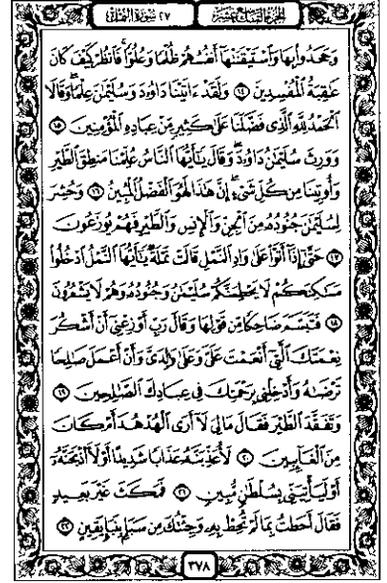
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

طس تلك آيات القرآن وكتاب مبين \* هدى وبشرى للمؤمنين \* الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم يوقنون \* إن الذين لا يؤمنون بالآخرة زيننا لهم أعمالهم فهم يعمهون \* أولئك الذين لهم سوء العذاب وهم في الآخرة هم الأخسرون \* وإنك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم \* إذ قال موسى لأهله إنني أتيتكم بآية من ربِّي فإني أخشى أن يكون ظنكم بما أتيتكم بها عبثاً \* فلما جاءها نوري أنوره من في النار فرجها وتبين الله رب العالمين \* يقولون إنه والله الغرير الكذِّب \* وألقى عصاه فلما رأى أنها تمزجها كأنها سحابة من دُخان \* فأتى عصاه إلى لحيان لدهن المرسلون \* إنا من ظلموا ولم نل حظاً مما نبرهون \* فأتى عذراً مبيناً \* وأذيع ذلك في حجة فخرج بيضاء من يمينه \* وفي قيعان البقيع والبرقون وقومه إنهم كانوا قوماً فاسقين \* فلما جاءهم نوره أتواهم من قبلهم كأنهم كانوا أهدى من النجوم \* ﴿١٧﴾

الدلالات، وأبينها على أجل المطالب، وأفضل المقاصد، وخير الأعمال، وأزكى الأخلاق، آيات تدل على الأخبار الصادقة، والأوامر الحسنة، والنهي عن كل عمل وخيم، وخلق ذميم، آيات بلغت في وضوحها وبيانها للبصائر النيرة، مبلغ الشمس للأبصار، آيات دلت على الإيمان، ودعت للوصول إلى الإيقان، وأخبرت عن الغيوب الماضية والمستقبلية، على طبع ما كان ويكون. آيات دعت إلى معرفة الرب العظيم، بأسمائه الحسنى وصفاته العليا وأفعاله الكاملة، آيات عرفتنا برسله وأوليائه، ووصفتهم حتى كأننا ننظر إليهم بأبصارنا، ولكن مع هذا لم ينتفع بها كثير من العالمين، ولم يهتد بها جميع المعاندين، صوتاً لها عن من لا خير فيه ولا صلاح، ولا زكاه في قلبه، وإنما اهتدى بها، من خصهم الله بالإيمان، واستنارت بذلك قلوبهم، وصفت سرائرهم.

فلهذا قال: ﴿هدى وبشرى للمؤمنين﴾ أي: تهديهم إلى سلوك الصراط المستقيم، وتبين لهم ما ينبغي أن يسلكوه أو يتركوه، وتبشرهم بشواب الله المرتب على الهداية لهذا الطريق.

ربما قيل: لعله يكثر مدعو الإيمان، فهل يقبل من كل أحد ادعى



أنه مؤمن ذلك؟ أم لا بد لذلك من دليل؟ وهو الحق، فلذلك بين تعالى صفة المؤمنين، فقال: ﴿الذين يقيمون الصلاة﴾ فرضها ونفلها، فيأتون بأفعالها الظاهرة، من أركانها، وشروطها، واجباتها، بل ومستحباتها، وأفعالها الباطنة، وهو الخشوع الذي روحها ولبها، باستحضار قرب الله، وتدبر ما يقول المصلي ويفعله.

﴿ويؤتون الزكاة﴾ المفروضة لمستحقيها. ﴿وهم بالآخرة هم يوقنون﴾ أي: قد بلغ معهم الإيمان إلى أن وصل إلى درجة اليقين، وهو العلم التام، الواصل إلى القلب، الداعي إلى العمل. ويقينهم بالآخرة، يقتضي كمال سعيهم لها، وحذرهم من أسباب العذاب وموجبات العقاب، وهذا أصل كل خير.

﴿إن الذين لا يؤمنون بالآخرة﴾ ويكذبون بها، ويكذبون من جاء بإثباتها، ﴿زيننا لهم أعمالهم فهم يعمهون﴾ حافزين مترددين، مؤثرين سخط الله على رضاه، قد انقلبت عليهم الحقائق، فرأوا الباطل حقاً، والحق باطلاً.

(١) في ب: الأحوال.

(٢) سبق قلم الشيخ - رحمه الله - فكتب: (حكيم خير) فصحتها، وأبقيت التفسير كما هو.

﴿أولئك الذين لهم سوء العذاب﴾ أشده وأسوأه وأعظمه، ﴿وهم في الآخرة هم الأخسرون﴾ حصر الخسار فيهم، لكونهم خسروا أنفسهم وأهلهم يوم القيامة، وخسروا الإيمان الذي دعتهم إليه الرسل.

﴿وانك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم﴾ أي: وإن هذا القرآن الذي ينزل عليك وتلقفه وتلقفه، ينزل من عند ﴿حكيم﴾ يضع الأشياء مواضعها، وينزلها منازلها. ﴿عليم﴾ بأسرار الأمور<sup>(١)</sup> وبواطنها، كظواهرها. وإذا كان من عند ﴿حكيم عليم﴾<sup>(٢)</sup> علم أنه كله حكمة ومصالح للعباد، من الذي [هو] أعلم بمصالحهم منهم؟

﴿إذ قال موسى لأهله إن أنست ناراً﴾ إلى آخر قصته، يعني: اذكر هذه الحالة الفاضلة الشريفة من أحوال موسى بن عمران، ابتداء الوحي إليه، واصطفائه برسالته، وتكليم الله إياه، وذلك أنه لما مكث في مدين عدة سنين، وصار بأهله من مدين متوجهاً إلى مصر، فلما كان في أثناء الطريق ضل، وكان في ليلة مظلمة باردة، فقال لهم: ﴿إني أنست ناراً﴾ أي: أبصرت ناراً من بعيد ﴿سأتبكم منها بخبر﴾ عن الطريق، ﴿أو أتاكم بشهاب قيس لعلكم تصطلون﴾ أي: تستدفون، وهذا دليل على أنه تائه، ومشتد برده، هو وأهله.

﴿فلما جاءها نودي أن بورك من في النار ومن حولها﴾ أي: ناداه الله تعالى وأخبره، أن هذا محل مقدس مبارك، ومن بركته، أن جعله الله موضعاً لتكليم الله لموسى وندائه وإرساله.

﴿وسبحان الله رب العالمين﴾ عن أن يُظن به نقص أو سوء، بل هو الكامل في وصفه وفعله. ﴿يا موسى إنه أنا الله العزيز الحكيم﴾ أي: أخبره الله أنه الله المستحق للعبادة وحده لا شريك له، كما في الآية الأخرى ﴿إني أنا الله لا

إله إلا أنا فاعبدني وأقم الصلاة لذكري﴾ ﴿العزيز﴾ الذي قهر جميع الأشياء، وأذعنت له كل المخلوقات، ﴿الحكيم﴾ في أمره وخلقه. ومن حكمته، أن أرسل عبده موسى بن عمران، الذي علم الله منه أنه أهل لرسالته ووحيه وتكليمه. ومن عزته، أن تعتمد عليه، ولا تستوحش من انفرادك وكثرة أعدائك وجبروتهم، فإن نواصيهم بيد الله، وحرركاتهم وسكونهم بتدبيره.

﴿وألق عصاك﴾ فألقاها ﴿فلما رآها تهتز كأنها جان﴾ وهو ذكر الحيات، سريع الحركة، ﴿ولي مدبراً ولم يعقب﴾ ذعراً من الحية التي رأى، على مقتضى الطباع البشرية، فقال الله له: ﴿يا موسى لا تخف﴾ وقال في الآية الأخرى: ﴿أقبل ولا تخف إنك من الأمنين﴾ ﴿إني لا يخاف لدي المرسلون﴾ لأن جميع المخاوف مندرجة في قضائه وقدره وتصريفه وأمره، فالذين اختصهم الله برسالته، واصطفاهم لوحيه، لا ينبغي لهم أن يخافوا غير الله، خصوصاً عند زيادة القرب منه، والحظوة بتكليمه.

﴿إلا من ظلم ثم بدل حسناً بعد سوء﴾ أي: فهذا الذي هو محل الخوف والوحشة بسبب ما أسدى من الظلم، وما تقدم له من الجرم، وأما المرسلون، فما لهم وللوحشة والخوف؟ ومع هذا، من ظلم نفسه بمعاصي الله، ثم تاب وأناب، فبدل سيئاته حسنات، ومعاصيه طاعات، فإن الله غفور رحيم، فلا ييأس أحد من رحمته ومغفرته، فإنه يغفر الذنوب جميعاً، وهو أرحم عباده من الوالدة بولدها.

﴿وأدخل يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء﴾ لا برص ولا نقص، بل بياض يبهر الناظرين شعاعه. ﴿في تسع آيات إلى فرعون وقومه﴾ أي: هاتان الآيتان، انقلاب العصا حية تسمى، وإخراج اليد من



أحداً من الأدميين، ولهذا دعاه ربه فقال: ﴿وَهَبْ لِي مَلَكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي﴾ فسخر الله له الشياطين، يعملون له كل ما شاء، من الأعمال التي يعجز عنها غيرهم، وسخر له الريح، غدوها شهر ورواحها شهر.

﴿إِنَّ هَذَا الَّذِي أَعْطَانَا اللَّهُ وَفَضَلَنَا وَاخْتَصَنَا بِهِ﴾ ﴿لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ﴾ الواضح الجلي، فاعترف أكمل اعتراف بنعمة الله تعالى.

﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ أي: جمع له جنوده الكثيرة الهائلة المتنوعة، من بني آدم، ومن الجن والشياطين، ومن الطيور فهم يوزعون، يدبرون، ويرد أولهم على آخرهم، وينظمون غاية التنظيم في سيرهم ونزولهم، وحلهم وترحالهم قد استعد لذلك، وأعد له عدته، وكل هذه الجنود مؤجرة بأمره، لا تقدر على عصيانه، ولا تمرد عنه، قال تعالى: ﴿هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ﴾ أي: أعط بغير حساب، فسار بهذه الجنود الضخمة في بعض أسفاره<sup>(٣)</sup>.

﴿حَتَّىٰ إِذَا اتَّوَا عَلَىٰ وَادِي النَّعْمِ

وَكَلَّا آتَيْنَا حِكْمًا وَعِلْمًا﴾ الآية. ﴿وقال﴾ شاكرين لربهما منته الكبرى بتعليمهما: ﴿الحمد لله الذي فضلنا على كثير من عباده المؤمنين﴾ فحمدا الله على جعلهما من المؤمنين، أهل السعادة، وأنهم كانوا من خواصهم.

ولا شك أن المؤمنين أربع درجات: الصالحون، ثم فوقهم الشهداء، ثم فوقهم الصديقون، ثم فوقهم الأنبياء، وداود وسليمان، من خواص الرسل، وإن كانوا دون درجة أولي العزم [الخمسة]، لكنهم من جملة الرسل الفضلاء الكرام، الذين نوه الله بذكرهم، ومدحهم في كتابه مدحاً عظيماً، فحمدوا الله على بلوغ هذه المنزلة، وهذا عنوان سعادة العبد، أن يكون شاكراً لله على نعمه الدينية والدنيوية، وأن يرى جميع النعم من ربه، فلا يفخر بها ولا يعجب بها، بل يرى أنها تستحق عليه شكراً كثيراً، فلما مدحهما مشتركين، خص سليمان بما خصه به، لكون الله أعطاه ملكاً عظيماً، وصار له من الماجريات ما لم يكن لأبيه، صلى الله عليهما وسلم، فقال: ﴿وَوُورِثَ سُلَيْمَانَ دَاوُدَ﴾ أي: ورث علمه ونبوته، فانضم علم أبيه إلى علمه، فلعله تعلم من أبيه ما عنده من العلم، مع ما كان عليه من العلم وقت أبيه، كما تقدم من قوله ففهمناها سليمان، وقال شكراً لله، وتبجحاً بإحسانه، وتحدثاً بنعمته: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ عَلِمْنَا مِنْتَظِرِ الطَّيْرِ﴾ فكان عليه الصلاة [والسلام] يفقه ما تقول وتتكلم به، كما راجع الهدد وراجع، وكما فهم قول النملة للنمل كما يأتي، وهذا لم يكن لأحد غير سليمان عليه الصلاة والسلام.

﴿وَأوتينا من كل شيء﴾ أي: أعطانا الله من النعم، ومن أسباب الملك، ومن السلطنة والقهر، ما لم يؤتوه الجيب، فتخرج بيضاء في جملة تسع آيات، تذهب بها وتدعو فرعون وقومه، ﴿إنهم كانوا قوماً فاسقين﴾ فسقوا بشرتهم وعتوهم وعلوهم على عباد الله، واستكبارهم في الأرض بغير الحق.

فذهب موسى عليه السلام إلى فرعون وملكه، ودعاهم إلى الله تعالى، وأراهم الآيات. ﴿فلما جاءتهم آياتنا مبصرة﴾ مضيئة، تدل على الحق، ويبصر بها كما تبصر الأبصار بالشمس. ﴿قالوا هذا سحر مبين﴾ لم يكفهم مجرد القول بأنه سحر، بل قالوا: ﴿مبين﴾ ظاهر لكل أحد. وهذا من أعجب العجائب، الآيات المبشرات، والأنوار الساطعات، تجعل من أبين الخزعبلات وأظهر السحرا! هل هذا إلا من أعظم المكابرة، وأوقع السفطة.

﴿وجحدوا بها﴾ أي: كفروا بآيات الله، جاحدين لها، واستيقنتها أنفسهم﴾ أي: ليس جحدهم مستنداً إلى الشك والريب، وإنما جحدهم مع علمهم وبقينهم<sup>(١)</sup> بصحتها ﴿ظلماً﴾ منهم لحق ربهم ولأنفسهم، ﴿وعلو﴾ على الحق وعلى العباد، وعلى الانقياد للرسل، ﴿فانظر كيف كان عاقبة المفسدين﴾ أسوأ عاقبة، دمرهم الله وغرقهم في البحر، وأخزاهم، وأورث مساكنهم المستضعفين من عباده.

﴿١٥ - ٤٤﴾ ﴿ولقد آتينا داود وسليمان علماً وقالوا الحمد لله الذي فضلنا على كثير من عباده المؤمنين﴾ وورث سليمان داود ﴿إلى آخر القصة. يذكر في هذا القرآن، وبنوه بمنته على داود وسليمان ابنه، بالعلم الواسع الكثير، بدليل التنكير، كما قال تعالى: ﴿وداود وسليمان إذ يحكمان في الحرث إذ نفثت فيه غنم القوم وكنا لحكمهم شاهدين﴾ ففهمناها سليمان

(١) في ب: يتقنهم.

(٢) في النسختين: فقال: (رب هب) وهو خطأ.

(٣) في أ: في بعض في.





في أمري ﴿أي: أخبروني، ماذا نجيبه به؟ وهل ندخل تحت طاعته ونقاد؟ أم ماذا نفعل؟﴾ ما كنت قاطعة أمراً حتى تشهدون ﴿أي: ما كنت مستبدة بأمر دون رأيكم ومشورتكم﴾  
 ف ﴿قالوا نحن أولو قوة وأولو بأس شديد﴾ أي: إن رددت عليه قوله، ولم تدخل في طاعته، فإننا أقوياء على القتال، فكأنهم مالوا إلى هذا الرأي، الذي لو تم لكان فيه دمارهم، ولكنهم أيضاً لم يستقروا عليه، بل قالوا: ﴿الأمر إليك﴾ أي: الرأي: ما رأيت، لعلمهم بعقلها وحزمها، ونصحها لهم ﴿فانظري﴾ نظر ففكر وتدبر ﴿ماذا تأمرين﴾.

فقال لهم - مقنعة لهم عن رأيهم، ومبينة سوء مغبة القتال - ﴿إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها﴾ قتلاً، وأسراً، ونهباً لأموالها، وتخريباً لديارها، ﴿وجعلوا أعزة أهلها أذلة﴾ أي: جعلوا الرؤساء السادة أشرف الناس من الأذلين، أي: فهذا رأي: غير سعيد، وأيضاً، فلست بمطبعة له قبل الاختبار وإرسال من يكشف عن أحواله وتبديرها، وحينئذ تكون على بصيرة من أمرنا، فقالت: ﴿وإني مرسله إليهم بهدية فناظرة بم يرجع المرسلون﴾ منه. هل يستمر على رأيه

المطر، وإنابت النبات، ويخرج خبء الأرض عند النفخ في الصور وإخراج الأموات من الأرض، ليجازيهم بأعمالهم ﴿ويعلم ما تحفون وما تعلنون﴾.

﴿الله لا إله إلا هو﴾ أي: لا تنبغي العبادة، والإنابة، والذل، والحب، إلا له، لأنه المألوه، لما له من الصفات الكاملة، والنعم الموجبة لذلك. ﴿رب العرش العظيم﴾ الذي هو سقف المخلوقات، ووسع الأرض والسموات، فهذا الملك العظيم السلطان، كبير الشأن، هو الذي يذل له ويخضع، ويسجد له ويركع، فسلم الهدهد حين ألقى إليه هذا النبأ العظيم، وتعجب سليمان كيف خفي عليه.

وقال متثبناً لكمال عقله ورزاقته: ﴿سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين﴾ \* اذهب بكتابي هذا ﴿وسياتي نصه﴾ فألقه إليهم ثم تول عنهم ﴿أي: استأخر غير بعيد﴾ فانظر ماذا يرجعون ﴿إليك وما يتراجعون به﴾. فذهب به فألقاه عليها، فقالت لقومها: ﴿إني ألقى إلي كتاب كريم﴾ أي: جليل المقدر، من أكبر ملوك الأرض.

ثم بينت مضمونه فقالت: ﴿إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم﴾ \* ألا تعملوا عليّ وأتوني مسلمين ﴿أي: لا تكونوا فوقي، بل اخضعوا تحت سلطاني، وانقادوا لأوامري، وأقبلوا إلي مسلمين﴾.

وهذا في غاية الوجازة مع البيان التام، فإنه تضمن نهيهم عن العلو عليه، والبقاء على حالهم التي هم عليها، والانقياد لأمره، والدخول تحت طاعته، ومجيئهم إليه، ودعوتهم إلى الإسلام، وفيه استحباب ابتداء الكتب بالبسملة كاملة، وتقديم الاسم في أول عنوان الكتاب، فمن حزمها وعقلها، أن جمعت كبار دولتها ورجال ملكتها، وقالت: ﴿يا أيها الملأ أفتوني

﴿لأعذبته عذاباً شديداً﴾ دون القتل، أو لأذبحنه أو ليأتيني بسُلطان مبین﴾ أي: حجة واضحة على تخلفه، وهذا من كمال ورعه وإنصافه، أنه لم يقسم على مجرد عقوبته بالعذاب أو القتل، لأن ذلك لا يكون إلا من ذنب، وغيبته قد تحتمل أنها لعذر واضح، لذلك استثناءه، لورعه وفطنته.

﴿فمكث غير بعيد﴾ ثم جاء، وهذا يدل على هيبته <sup>(١)</sup> جنوده منه، وشدة اتमारهم لأمره، حتى إن هذا الهدهد، الذي خلفه العذر الواضح، لم يقدر على التخلف زمناً كثيراً، ﴿فقال﴾ لسليمان: ﴿أحطت بما لم تحط به﴾ أي: عندي من العلم علم ما أحطت به، على علمك الواسع، وعلو درجتك فيه، ﴿وجئتك من سبأ﴾ القبيلة المعروفة في اليمن ﴿بنياً يقين﴾ أي: خبير متيقن.

ثم فسر هذا النبأ فقال: ﴿إني وجدت امرأة تملكهم﴾ أي: تملك قبيلة سبأ، وهي امرأة، ﴿وأوتيت من كل شيء﴾ يؤتاه الملوك، من الأموال، والسلاح، والجنود، والحصون، والقلاع، ونحو ذلك. ﴿ولها عرش عظيم﴾ أي: كرسي ملكها الذي تجلس عليه، عرش هائل، وعظم العروش تدل على عظمة المملكة وقوة السلطان وكثرة رجال الشورى.

﴿وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله﴾ أي: هم مشركون يعبدون الشمس. ﴿وزين لهم الشيطان أعمالهم﴾ فرأوا ما هم عليه هو الحق، ﴿فهم لا يفتنون﴾ لأن الذي يرى أن الذي عليه حق، لا مطمع في هدايته حتى تغير عقيدته.

ثم قال: ﴿ألا﴾ أي: هلا ﴿يسجدوا لله الذي يخرج الخبء في السماوات والأرض﴾ أي: يعلم الخفي الخبيء، في أقطار السماوات، وأنحاء الأرض، من صغار المخلوقات، ونبذور النباتات، وخفايا الصدور، ويخرج خبء الأرض والسما، بإنزال

(١) كذا في ب، وفي أ: هيبته.



يرى الماء الذي تحتها، كأنه بذاته يجري، ليس دونه شيء، ﴿وكشفت عن ساقيها﴾ للخياضة، وهذا أيضاً من عقلها وأدبها، فإنها لم تمنع من الدخول للمحل الذي أمرت بدخوله، لعلمها أنها لم تستدع إلا للإكرام، وأن ملك سليمان وتنظيمه، قد بناه على الحكمة، ولم يكن في قلبها أدنى شك من حالة السوء، بعد ما رأت ما رأت.

فلما استعدت للخوض قيل لها: ﴿إنه صرح بمردك أي: بمس من قوارير﴾ فلا حاجة منك لكشف الساقين. فحينئذ لما وصلت إلى سليمان، وشاهدت ما شاهدت، وعلمت نبوته ورسالته، ثابت ورجعت عن كفرها، و ﴿قالت رب إني ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين﴾

فهذا ما قصه الله علينا من قصة ملكة سبأ، وما جرى لها مع سليمان، وما عدا ذلك من الفروع المولدة، والقصاص الإسرائيلية، فإنه لا يتعلق بالتفسير لكلام الله، وهو من الأمور التي يقف الجزم بها، على الدليل المعلوم المعصوم، والمنقولات في هذا الباب كلها، أو أكثرها، ليس كذلك، فالجزم كل الجزم، الإعراض عنها، وعدم إدخالها في التفسير، والله أعلم.

﴿٤٥ - ٥٣﴾ ﴿ولقد أرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحاً أن اعبدوا الله فإذا هم فريقان يختصمون﴾ إلى آخر القصة. يجبر تعالى أنه أرسل إلى ثمود القبيلة المعروفة، أخاهم في النسب صالحاً، وأنه أمرهم أن يعبدوا الله وحده، ويتركوا الأنداد والأوثان، ﴿فإذا هم فريقان يختصمون﴾ منهم المؤمن، ومنهم الكافر، وهم معظمهم.

﴿قال يا قوم لم تستعجلون بالسيئة قبل الحسنة﴾ أي: لم تبادرeron فعل السيئات ومحرضون عليها، قبل فعل الحسنات، التي بها تحسن أحوالكم وتصلح أموركم الدينية والدنيوية؟ والحال أنه لا موجب لكم إلى الذهاب

لفعل السيئات؟ ﴿لولا تستغفرون الله﴾ بأن تتوبوا من شرككم وعصيانكم، وتدعوه أن يغفر لكم، ﴿لعلكم ترحمون﴾ فإن رحمة الله تعالى قريب من المحسنين، والتائب من الذنوب، هو من المحسنين.

﴿قالوا﴾ لنبيهم صالح، مكذابين ومعارضين: ﴿اطيرنا بك وبمن معك﴾ زعموا - قبحهم الله - أنهم لم يروا على وجه صالح خيراً، وأنه هو ومن معه من المؤمنين، صاروا سبباً لمنع بعض مطالبهم الدنيوية، فقال لهم صالح: ﴿طائركم عند الله﴾ أي: ما أصابكم إلا بذنوبكم، ﴿بل أنتم قوم تفتنون﴾ بالسراء والضراء، والخير والشر، لينظر هل تفلعون وتتوبون، أم لا؟ فهذا دأبهم في تكذيب نبيهم وما قابلوه به.

﴿وكان في المدينة﴾ التي فيها صالح، الجامعة لمعظم قومه ﴿تسعة رهط يفسدون في الأرض ولا يصلحون﴾ أي: وصفهم الإفساد في الأرض، ولا لهم قصد ولا فعل بالإصلاح، قد استعدوا لمعاداة صالح والطعن في دينه، ودعوة قومهم إلى ذلك، كما قال تعالى: ﴿فاتقوا الله وأطيعون﴾ ولا تطيعوا أمر المسرفين الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون.

فلم يزالوا بهذه الحال الشنيعة، حتى إنهم من عداوتهم ﴿تقاسموا﴾ فيما بينهم، كل واحد أقسم للآخر: ﴿لنبيته وأهله﴾ أي: تأتيه<sup>(١)</sup> ليلاً، هو وأهله، فلقتلهم، ﴿ثم لنقولن لوليه﴾ إذا قام علينا، وأدعى علينا أننا قتلناه، ننكر ذلك، ونسفيه ونحلف ﴿إنا لصادقون﴾ فتواطؤوا على ذلك، ﴿ومكروا مكراً﴾ دبروا أمرهم على قتل صالح وأهله، على وجه الخفية، حتى [من] قومهم، خوفاً من أوليائه، ﴿ومكرونا مكراً﴾ بنصر نبينا صالح عليه السلام، وتيسير أمره، وإهلاك قومه المكذبين ﴿وهم لا يشعرون﴾

أَمْ يَتَّبِعُونَ الْحَقَّ فَهُمْ يُبْغِدُونَ وَيُكْفِرُونَ بِالسَّيِّئَةِ وَالْأَرْضِ  
أَلَمْ يَسْمَعْ اللَّهُ قَوْلَهَا وَأَيُّكُمْ كَذِبٌ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْكُمْ كَاذِبُونَ  
قُلْ لَا يَعْلَمُونَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ  
وَمَا يَشْعُرُونَ أَتَىٰ أَن يَكْفُرُوا ۖ قُلْ أَتَىٰ اللَّهُ الْعَرْشَ  
بَلَدًا فِي سِتِّينَ يَوْمًا أَتَىٰ فِيهَا غَمُومًا ۚ قَالُوا لَئِن  
كَذَّبْنَا لَأَكْفِرَنَّ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ لَّوْ كُنَّا عِندَ اللَّهِ  
وَعِدَاءً مُّتَعَدِّينَ ۚ قَالُوا قَالُوا قَالُوا قَالُوا قَالُوا قَالُوا  
قُلْ قِيلَ لِيَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُحَانٍ مُّكْتَبٍ ۚ كَانَتْ  
عِندَ رَبِّكَ ۖ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِي ضَلَالٍ مُّبِينًا ۚ  
وَيَقُولُونَ سَمَّىٰ هَذَا الْوَعْدَ كَثْرَةَ سَوِيِّينَ ۚ قُلْ عَسَىٰ  
أَن يَكُونَ رَدْفَ الْكُرْبِيِّ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ ۚ وَإِنَّ رَبَّكَ  
لَأَوْقَعُ عَلَى النَّاسِ لَكُنُوزًا أَكْثَرًا مِنَّا لَكُنُوزًا ۚ  
وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكْسِبُونَ وَيَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ  
بِغَمِيمٍ ۚ قُلْ لِيَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُحَانٍ مُّكْتَبٍ ۚ  
يَتَّبِعُنَّ عَلَى السَّمَاءِ آتٍ أَسْفَلَ مِنْهَا ۚ قُلْ لِيَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ  
بِغَمِيمٍ ۚ قُلْ لِيَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُحَانٍ مُّكْتَبٍ ۚ

﴿فانظر كيف كان عاقبة مكروهم﴾ هل حصل مقصودهم؟ وأدركوا بذلك المكر مطلوبهم، أم انتقض عليهم الأمر، ولهذا قال: ﴿أنا دمرناهم وقومهم أجمعين﴾ أهلكناهم، واستأصلنا شأفتهم، فجاءتهم صيحة عذاب، فأهلكوا عن آخرهم.

﴿فتلك بيوتهم خاوية﴾ قد تهدمت جدرانها على سقوفها، وأوحشت من ساكنيها، وعظلت من نازليها، ﴿بما ظلموا﴾ أي: هذا عاقبة ظلمهم وشركهم بالله، وبغيبهم في الأرض. ﴿إن في ذلك لآية لقوم يعلمون﴾ الحقائق، ويتدبرون وقائع الله، في أوليائه وأعدائه، فيعتبرون بذلك، ويعلمون أن عاقبة الظلم الدمار والهلاك، وأن عاقبة الإيمان والعدل النجاة والفوز.

ولهذا قال: ﴿وأنجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون﴾ أي: أنجينا المؤمنين بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خبيره وشهره، وكانوا يتقون الشرك بالله والمعاصي، ويعملون بطاعته وطاعة رسله.

﴿٥٤ - ٥٨﴾ ﴿ولوطاً إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة وأنتم تبصرون﴾ إلى آخر القصة. أي: واذكر عبدنا ورسولنا لوطاً، ونسباً الفاضل، حين قال

(١) في ب: لتأتيهم.



وهياته وعدله، وحكمته في عقوبته المكذبين وتعذيب الظالمين، وسلم أيضاً على عباده، الذين تخيرهم واصطفاهم على العالمين، من الأنبياء والمرسلين، وصفوة الله من العالمين، وذلك لرفع ذكركم، وتنوياً بقدرهم، وسلامتهم من الشر والأذى، وسلامة ما قالوه في ربهم من النقائص والعيوب.

﴿الله خير أما يشركون﴾ وهذا استفهام قد تقرر وعرف، أي: الله الرب العظيم، كامل الأوصاف، عظيم الألطاف، خير أم الأصنام والأوثان التي عبدها معه، وهي ناقصة من كل وجه، لا تنفع ولا تضر، ولا تملك لأنفسها ولا لعابديها مثقال ذرة من الخير، فالله خير مما يشركون.

ثم ذكر تفاصيل ما به يعرف ويتبين أنه الإله المعبود، وأن عبادته هي الحق، وعبادة [ما] سواه هي الباطل، فقال:

﴿٦٠﴾ ﴿أمن خلق السماوات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها إله مع الله بل هم قوم يعدلون﴾.

أي: من خلق السماوات وما فيها، من الشمس والقمر والنجوم والملائكة، والأرض وما فيها، من جبال وبحار وأنهار وأشجار وغير ذلك؟

﴿وأنزل لكم﴾ أي: لأجلكم ﴿من السماء ماء فأنبتنا به حدائق﴾ أي:

بساتين ذات بهجة ﴿أي: حسن منظر، من كثرة أشجارها وتنوعها، وحسن ثمارها، ﴿ما كان لكم أن تنبتوا شجرها﴾ لولا منة الله عليكم بإنزال المطر. ﴿إله مع الله﴾ فعل هذه الأفعال، حتى يعبد معه ويشرك به؟، ﴿بل هم قوم يعدلون﴾ به غيره، ويسوون به سواه، مع علمهم أنه وحده خالق العالم العلوي والسفلي، ومنزل الرزق.

﴿٦١﴾ ﴿أمن جعل الأرض قراراً وجعل خلالها أنهاراً وجعل لها رواسي

فكانه قيل: ما نعمتم منهم، وما ذنبهم الذي أوجب لهم الإخراج، فقالوا: ﴿إنهم أناس يتطهرون﴾ أي: يتنزهون عن اللواط وأدبار الذكور. فقبحهم الله، جعلوا أفضل الحسنات بمنزلة أقبح السيئات، ولم يكتفوا بمعصيتهم لنبيهم فيما وعظهم به، حتى وصلوا إلى إخراجهم، والبلاء موكل بالناطق، فهم قالوا: ﴿أخرجوهم من قريبتكم﴾ إنهم أناس يتطهرون﴾.

ومفهوم هذا الكلام: «أنتم متلوثون بالخبث والقدر، المقتضي لنزول العقوبة بقريبتكم، ونجاة من خرج منها».

ولهذا قال تعالى: ﴿فأنجيناه وأهله إلا أمراته قدرناها من الغابرين﴾ وذلك لما جاءت الملائكة في صورة أضياف، وسمع بهم قومه، فجاءوا إليه يريدونهم بالشر، وأغلق الباب دونهم، واشتد الأمر عليه، ثم أخبرته الملائكة عن جليلة الحال، وأنهم جاؤوا لاستنقاذه وإخراجه من بين أظهرهم، وأنهم يريدون إهلاكهم، وأن موعدهم الصبح، وأمروه أن يسري بأهله ليلاً، إلا امرأته فإنه سيصيبها ما أصابهم، فخرج بأهله ليلاً، فنجوا، وصبّحهم العذاب، فقلب الله عليهم ديارهم، وجعل أعلاها أسفلها، وأمطر عليهم حجارة من سجيل منضود، مسومة عند ربك.

ولهذا قال هنا: ﴿وأمطرنا عليهم مطراً فساء مطر المنذرين﴾ أي: بنس المطر مطرهم، وبنس العذاب عذابهم، لأنهم أنذروا وخوفوا، فلم ينزجروا ولم يرتدعوا، فأحل الله بهم عقابه الشديد.

﴿٥٩﴾ ﴿قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى إله خير أم ما يشركون﴾ أي: قل «الحمد لله» الذي يستحق كمال الحمد والمدح والثناء، لكمال أوصافه، وجميل معرفته،

لقومه - داعياً لهم إلى الله وناصحاً - ﴿أتأتون الفاحشة﴾ أي: الفعلة الشنعاء، التي تستفحشها العقول والفطر، وتستقبحها الشرائع ﴿وأنتم تبصرون﴾ ذلك، وتعلمون قبحه، فعاندمت، وارتكبتم ذلك، ظلماً منكم وجراً على الله.

ثم فسر تلك الفاحشة، فقال: ﴿إنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء﴾ أي: كيف توصلتم إلى هذه الحال، صارت شهوتكم للرجال، وأدبارهم محل الغائط والنجس والخبث، وتركتم ما خلق الله لكم من النساء من المحال الطيبة، التي جبلت النفوس إلى الميل إليها وأنتم انقلب عليكم الأمر، فاستحسنتم القبيح، واستقبحتم الحسن، ﴿بل أنتم قوم تجهلون﴾ (١) متجاوزون لحدود الله، متجرؤون على عماره.

﴿فما كان جواب قومه﴾ قبول ولا انزجار، ولا تذكر وادكار، إنما كان جوابهم المعارضة والمناقضة، والتوعد لنبيهم الناصح ورسولهم الأمين، بالإجلاء عن وطنه، والتشريد عن بلده. فما كان جواب قومه ﴿إلا أن قالوا أخرجوا آل لوط من قريبتكم﴾

(١) سبق قلم الشيخ - رحمه الله - فذهب إلى آية الأعراف فكتب: ﴿بل أنتم قوم مسرفون﴾ وفسرها على هذا، فصحت الآية، وأبقيت التفسير كما هو.

السموات والأرض الغيب إلا الله وما يشعرون أيان يبعثون \* بل اذرك علمهم في الآخرة بل هم في شك منها بل هم منها عمون \* وقال الذين كفروا إذا كنا تراباً وأبأؤنا أننا لمخرجون \* لقد وعدنا هذا نحن وأبأؤنا من قبل إن هذا إلا أساطير الأولين \* يخبر تعالى أنه المنفرد بعلم غيب السموات والأرض، كقوله تعالى: ﴿وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين﴾ وكقوله: ﴿إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في الأرحام﴾ إلى آخر السورة.

هذه الغيوب ونحوها، اختص الله بعلمها، فلم يعلمها ملك مقرب، ولا نبي مرسل، وإذا كان هو المنفرد بعلم ذلك، المحيط علمه بالسرائر والبواطن والخفايا، فهو الذي لا تنبغي العبادة إلا له، ثم أخبر تعالى عن ضعف علم المكذبين بالآخرة، منتقلاً من شيء إلى ما هو أبلغ منه، فقال:

﴿وما يشعرون﴾ أي: وما يدرون ﴿أيان يبعثون﴾ أي: متى البعث والنشور، والقيام من القبور، أي: فلذلك لم يستعدوا، ﴿بل اذرك علمهم في الآخرة﴾ أي: بل ضعف، وقُلْ ولم يكن يقيناً، ولا علماً واصل إلى القلب، وهذا أقل وأدنى درجة للعلم، ضعفه ووهأؤه، بل ليس عندهم علم، ولا ضعيف، وإنما هم في شك منها﴾ أي: من الآخرة، والشك زال به العلم، لأن العلم بجميع مراتبه، لا يجامع الشك، ﴿بل هم منها﴾ أي: من الآخرة ﴿عمون﴾ قد عميت عنها بصائرهم، ولم يكن في قلوبهم من وقوعها ولا احتمال، بل أنكروها واستبعدوها، ولهذا قال: ﴿وقال الذين كفروا إذا كنا تراباً وأبأؤنا أننا لمخرجون﴾ أي: هذا بعيد غير ممكن، قاسوا قدرة كامل القدرة بقدرهم الضعيفة، ﴿لقد وعدنا هذا﴾ أي: البعث ﴿نحن وأبأؤنا من قبل﴾ أي:

تذكرون﴾ أي: قليل تذكركم وتدبركم للأمور، التي إذا تذكروتموها اذكرتم ورجعتم إلى الهدى، ولكن الغفلة والإعراض شامل لكم، فلذلك ما أروعيتم ولا اهتديتم.

﴿٦٣﴾ ﴿أمن يهديكم في ظلمات البر والبحر ومن يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته﴾ أي: مع الله تعالى الله عما يشركون﴾ أي: من هو الذي يهديكم حين تكونون في ظلمات البر والبحر، حيث لا دليل، ولا معلم يرى، ولا وسيلة إلى النجاة إلا هدايته لكم، وتيسيره الطريق، وجعل ما جعل لكم من الأسباب التي تهتدون بها، ﴿ومن يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته﴾ أي: بين يدي المطر، فيرسلها، فتشير السحاب، ثم تولفه، ثم تجمععه، ثم تلقحه، ثم تدره، فيستبشر بذلك العبيد، قبل نزول المطر. ﴿أله مع الله﴾ فعل ذلك؟ أم هو وحده، الذي انفرد به؟ فلم أشركتم معه غيره، وعبدتم سواه؟ ﴿تعالى الله عما يشركون﴾ تعاطم وتنزه وتقدس عن شركهم وتسويتهم به غيره.

﴿٦٤﴾ ﴿أمن يبدأ الخلق ثم يعيده ومن يرزقكم من السماء والأرض﴾ أي: مع الله قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين﴾ أي: من هو الذي يبدأ الخلق، وينشئ المخلوقات، ويبتدئ خلقها، ثم يعيد الخلق يوم البعث والنشور؟ ومن يرزقكم من السماء والأرض، بالمطر والنبات؟ ﴿أله مع الله﴾ يفعل ذلك، ويقدر عليه؟ ﴿قل هاتوا برهانكم﴾ أي: حججتكم ودليلكم على ما قلتم ﴿إن كنتم صادقين﴾ وإلا، فبتقدير أنكم تقولون: إن الأصنام لها مشاركة له، في شيء من ذلك، فذلك مجرد دعوى، صدقوها بالبرهان، وإلا، فاعرفوا أنكم مبطلون، لا حجة لكم، فارجعوا إلى الأدلة اليقينية والبراهين القطعية الدالة على أن الله هو المنفرد بجميع التصرفات، وأنه المستحق أن تصرف له جميع أنواع العبادات.

﴿٦٥ - ٦٨﴾ ﴿قل لا يعلم من في

وجعل بين البحرين حاجزاً إله مع الله بل أكثرهم لا يعلمون﴾ أي: هل الأصنام والأوثان، الناقصة من كل وجه، التي لا فعل منها ولا رزق ولا نفع، خير؟ أم الله الذي جعل الأرض قراراً يستقر عليها العباد ويتمكنون من السكنى، والحرث، والبناء، والذهاب، والإياب. ﴿وجعل خلالها أنهاراً﴾ أي: جعل في خلال الأرض، أنهاراً ينتفع بها العباد، في زروعهم وأشجارهم، وشربهم وشرب مواشيهم.

﴿وجعل لها رواسي﴾ أي: جبلاً ترسيها وثبتها، لثلا تميد، وتكون أوتاداً لها، لثلا تضطرب. ﴿وجعل بين البحرين﴾ البحر المالح والبحر العذب ﴿حاجزاً﴾ يمنع من اختلاطهما، فتفوت المنفعة المقصودة من كل منهما، بل جعل بينهما حاجزاً من الأرض، جعل مجرى الأنهار في الأرض مبعدة عن البحار، فيحصل منها مقاصدها ومصالحها، ﴿أله مع الله﴾ فعل ذلك، حتى يعدل به الله ويشرك به معه. ﴿بل أكثرهم لا يعلمون﴾ فيشركون بالله، تقليداً لرؤسائهم، وإلا فلو علموا حق العلم، لم يشركوا به شيئاً.

﴿٦٦﴾ ﴿أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض إله مع الله قليلاً ما تذكرون﴾ أي: هل يجيب المضطر، الذي أفلتته الكروب، وتعسر عليه المطلوب، واضطر للخلاص مما هو فيه، إلا الله وحده؟ ومن يكشف السوء، أي: البلاء والشر والنقمة، إلا الله وحده؟ ومن يجعلكم خلفاء الأرض، ويمكنكم منها، ويمد لكم بالرزق، ويوصل إليكم نعمه، وتكونون خلفاء من قبلكم، كما أنه سيميتكم، ويأتي بقوم بعدكم، إله مع الله يفعل هذه الأفعال؟ لا أحد يفعل مع الله شيئاً من ذلك، حتى بإقراركم أيها المشركون، ولهذا كانوا إذا مسهم الضر، دعوا الله مخلصين له الدين، لعلمهم أنه وحده المقدر على دفعه وإزالته، ﴿قليلاً ما

معانيه، فهؤلاء تحصل لهم به الهداية إلى الصراط المستقيم، والرحمة المتضمنة للسعادة والفوز والفلاح.

﴿٧٨﴾ ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ أي: إن الله تعالى سيفصل بين المختلفين، بحكمه العدل، وقضائه القسط، فالأمور وإن حصل فيها اشتباه في الدنيا بين المختلفين، لحفاء الدليل، أو لبعض المقاصد، فإنه سيبين فيها الحق المطابق للعزيم الذي قهر الخلاق فأذعنوا له، ﴿العليم﴾ بجميع الأشياء ﴿العليم﴾ بأقوال المختلفين، وعن ماذا صدرت، وعن غاياتها ومقاصدها، وسيجازي كلا بما علمه فيه.

﴿٧٩-٨١﴾ ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾ \* إنك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين \* وما أنت بهادي العمى عن ضلالتهن إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون﴾ أي: اعتمد على ربك في جلب المصالح ودفع المضار، وفي تبليغ الرسالة، وإقامة الدين، وجهاد الأعداء. ﴿إنك على الحق المبين﴾ الواضح، والذي على الحق، يدعو إليه، ويقوم بنصرته، أحق من غيره بالتوكل، فإنه يسعى في أمر مجزوم به، معلوم صدقه، لا شك فيه ولا مرية. وأيضاً، فهو حق في غاية البيان، لا خفاء به ولا اشتباه، وإذا قمت بما حملت، وتوكلت على الله في ذلك، فلا يضرك ضلال من ضل، وليس عليك هداهم، فلماذا قال: ﴿إنك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء﴾ أي: حين تدعوهم وتناديهم، وخصوصاً ﴿إذا ولوا مدبرين﴾ فإنه يكون أبلغ في عدم إسماعهم.

﴿وما أنت بهادي العمى عن ضلالتهن﴾ كما قال تعالى: ﴿إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء﴾. ﴿إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون﴾ أي: هؤلاء الذين يتقادون لك، الذين يؤمنون

لهم وقوع ما استعجلوه: ﴿قل عسى أن يكون ردف لكم﴾ أي: قرب منكم، وأوشك أن يقع بكم ﴿بعض الذي تستعجلون﴾ من العذاب.

﴿٧٣-٧٥﴾ ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ \* وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تَكُنْ صُدُورُهُمْ وَمَا يَعْلَنُونَ \* وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ \* ينه عباده، على سعة جوده، وكثرة أفضاله، ويحثهم على شكرها، ومع هذا، فأكثر الناس قد أعرضوا عن الشكر، واشتغلوا بالنعم عن المنعم. ﴿وإن ربك ليعلم ما تكن﴾ أي: تنطوي عليه ﴿صدورهم وما يعلنون﴾ فليحذروا من عالم السرائر والظواهر، وليراقبوه.

﴿وما من غائبة في السماء والأرض﴾ أي: خفية، وسر من أسرار العالم العلوي والسفلي، ﴿إلا في كتاب مبين﴾ قد أحاط ذلك الكتاب بجميع ما كان ويكون إلى أن تقوم الساعة، فكل حادث يحدث جلي أو خفي، إلا وهو مطابق لما كتب في اللوح المحفوظ.

﴿٧٦-٧٧﴾ ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقْضَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ \* وإنه لهدى ورحمة للمؤمنين﴾ وهذا خبر عن هيمنة القرآن، على الكتب السابقة، وتفصيله وتوضيحه، لما كان فيها قد وقع فيه اشتباه واختلاف عند بني إسرائيل، فقضه هذا القرآن قصاً زال به الإشكال، وبين الصواب من المسائل المختلف فيها. وإذا كان بهذه المثابة، من الجلالة والوضوح، وإزالة كل خلاف، وفصل كل مشكل، كان أعظم نعم الله على العباد، ولكن ما كل أحد يقابل النعمة بالشكر. ولهذا بين أن نفعه ونوره وهده، يختص بالمؤمنين، فقال: ﴿وإنه لهدى﴾ من الضلالة والغنى والشبه ﴿ورحمة﴾ تنلج له صدورهم، وتستقيم به أمورهم الدينية والدنيوية ﴿للمؤمنين﴾ به، المصدقين له، المتلقين له بالقبول، المقبلين على تدبره، المتفكرين في

فلم يحثنا، ولا رأينا منه شيئاً. ﴿إن هذا إلا أساطير الأولين﴾ أي: قصصهم وأخبارهم، التي تقطع بها الأوقات، وليس لها أصل، ولا صدق فيها.

فانتقل في الإخبار عن أحوال هؤلاء المكذبين بالإخبار أنهم لا يدرون متى وقت الآخرة، ثم الإخبار بضعف علمهم فيها، ثم الإخبار بأنه شك، ثم الإخبار بأنه عمى، ثم الإخبار بإنكارهم لذلك واستبعادهم وقوعه. أي: وبسبب هذه الأحوال ترحل خوف الآخرة من قلوبهم، فأقدموا على معاصي الله، وسهل عليهم تكذيب الحق، والتصديق بالباطل، واستحلوا الشهوات على القيام بالعبادات، فخرسوا دنياهم وأخرهم.

﴿٦٩﴾ ثم نبههم على صدق ما أخبرت به الرسل، فقال: ﴿قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المجرمين﴾ فلا تجدون مجرماً قد استمر على إجرامه، إلا وعاقبته شر عاقبة، وقد أحل الله به من الشر والعقوبة ما يليق بحاله.

﴿٧٠-٧٢﴾ ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ \* ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين \* قل عسى أن يكون ردف لكم بعض الذي تستعجلون﴾ أي: لا تحزن يا محمد على هؤلاء المكذبين، وعدم إيمانهم، فإنك لو علمت ما فهم من الشر، وأنهم لا يصلحون للخير، لم تأس ولم تحزن، ولا يضق صدرك، ولا تقلق نفسك بمكرهم، فإن مكرهم سيعود عاقبته عليهم، ﴿ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين﴾ ويقول المكذبون بالمعاد، وبالحق الذي جاء به الرسول، مستعجلين للعذاب: ﴿متى هذا الوعد إن كنتم صادقين﴾ وهذا من سفاهة رأيهم وجهلهم، فإن وقوعه ووقته، قد أجله الله بأجله، وقدره بقدر، فلا يدل عدم استعجاله على بعض مطلوبهم.

ولكن - مع هذا - قال تعالى محذراً

